

إشكالية تأويل الخطاب النقدي المعاصر من عنف القراءة إلى إثم المقاطعة

أ.د/ ليلى محمد جودي

جامعة الجزائر 02

leiladjoudi@windowslive.com

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تروم هذه الدراسة البحث في الخطاب النقدي المعاصر من حيث قابليته للتأويل من عدمها؛ أي الكشف عن مدى نجاعة التأويل - بوصفه مصطلحا أو منهجا أو علما أو فلسفة أو فنا أو آلية... - في قراءة خطابات نقدية زئبقية تتسم بالتنوع والكثرة، من خلال رسم خارطة عبور داخل أنفاقها ودهاليزها لتقصي فاعليته فيها، وبخاصة وأن الخطابات كلها تعرف تحولات وانزياحات كثيرة، تفرض على القراء امتلاكاً للآليات والأدوات الإجرائية ليتمكنوا من تحقيق الرؤية التأويلية، لهذا كان لزاماً على التأويل أن يرفع من سقف دوره، ولا يخيب أفاق تطلعات القراء، ويجب عن تساؤلات كثيرة من قبيل: هل للتأويل منهج خاص به وحده بالنظر إلى توالد معانيه وتناميها؟ وهل التأويل يخضع الخطاب أم يخضع له؟ وهل معايير تأويل الخطابات على تنوعها واختلافها هي نفسها؟ وهل النقد والتأويل يسعيان إلى تفكيك الخطابات وكشف خصوصياتها أم تعريتها من خصوصياتها؟ ثم ماذا قدّمت التأويلات المتجددة بتنقيحاتها وشروحاتها وما أتبعها من تفسيرات، للخطاب عموماً، وللخطاب الأدبي والنقدي خصوصاً؟ وهل تستقر إلى حيث استقرت ألوان من العلوم والثقافات في عالم الإبداع والفن أم تتجاوزه كما تجاوزت المراحل التقليدية بحكم التطور القائم على التأثير والتأثير؟ ثم ما دور التأويل في صناعة القراءة والنقد؟ وهل هو كفيل برسم معالم القارئ والناقد والمؤول على حد سواء؟ وكيف أسهم القراء والنقاد والمؤولون في بلورة الخطاب وتطويره وتوجيه دفته نحو صناعة الأفكار والمناهج والنظريات وتفعيلها؟ وهل كثرة التأويلات وتجاوزها الحد يؤدي إلى صدماتٍ تأويلية تعزز التأويل وتثريه أم صدماتٍ تزيد من حدة الصراع بين المؤولين؟ ...

الكلمات المفتاحية: التأويل - الخطاب - النقد - القراءة - المناهج

الملخص باللغة الإنجليزية:

The problem of interpreting contemporary critical discourse From the violence of reading to the sin of boycotting

This study aims to investigate contemporary critical discourse in terms of its susceptibility to be interpreted or not, i.e. to reveal the effectiveness of interpretation - as a term, method, science, philosophy, art, mechanism... - In reading mercurial critical discourses characterized by diversity and abundance, by drawing a transit map within their tunnels and corridors to investigate its effectiveness in them, especially since all discourses are undergoing transformations and many shifts that impose on readers the possession of procedural mechanisms and tools to be able to achieve the interpretive vision, so it was necessary for interpretation to raise the ceiling of its role, and not disappoint the horizon of readers' aspiration, and answers many questions such as: Does interpretation have its own approach alone given the reproduction and growth of its meanings? Does interpretation subordinate the discourse or is it subject to it? Are the criteria for interpreting speeches, despite their diversity and differences, the same? Do criticism and interpretation seek to deconstruct discourses and reveal their particularities, or do they deprive them of their particularities? Moreover, what did the renewed interpretations, with their revisions, explanations and subsequent interpretations, offer to discourse in general, and to literary and critical discourse in particular? Will it stabilize where various types of sciences and cultures have stabilized in the world of creativity and art, or will it transcend it as it has surpassed the traditional stages by virtue of development based on influence and influence? Then what is the role of interpretation in the making of reading and criticism? Then what is the role of hermeneutics in the reading and criticism activity? Is it enough to shape the reader, critic and interpreter alike? How did readers, critics and interpreters contribute to crystallizing and developing discourse and directing it towards creating and activating ideas, curricula and theories? Does the large number of interpretations and exceeding the limit lead to interpretive clashes that enhance and enrich interpretation, or clashes that intensify the conflict between interpreters? ...

عن القراءة النقدية

أن تكون مبدعا فهذا أمر جميل، وأن تكون قارئاً نهما فهذا أمر عظيم، وأعظم من هذا وذاك أن تكون ناقداً حصيفاً، بل أخطر من هذا كله أن تكون مؤولاً نزيهاً، فهذا منتهى المأرب. إن هذا التسلسل في الطرح لم يكن جزافاً، وهو حال هؤلاء ممن لا يلقون الكلام على عواهنه؛ إذ حسبهم أنهم يرومون الإسهام في بناء الإنسان، والارتقاء به، أو تصحيح مساره مع تقلبات الزمن وما تشهده الحياة من تجدد؛ لذلك كان بد للإبداع من أن يرسخ جذوره بالقراءة، التي هي في الأصل قراءات، تعين القارئ على إيجاد فهم عميق لكل ما يقرأ، سواء أكان خيالاً أم واقعياً، ثم تشكيكه من خلال التدرج المرحلي الذي ينطلق بالتأمل والفهم، إلى التحليل والتقييم، فالتأويل الذي يعد من أبرز مستويات تحليل الخطاب النقدي.

ولئن كان فن القراءة - ولا يزال - بابا واسعا لا يمكننا تجاهل أهميته في النص الإبداعي والخطاب النقدي، فإن طريقه لولوج عالم التأويل شرط واجب الوجود؛ إذ به تُحَقِّقُ مسألة الوعي والفهم فاعليتها لكل ما يُقرأ، كون التأويل هو -أيضا - فن مخصوص وذائقة معرفية منفتحة، تسعى إلى تحويل الذهن من مرحلة الاستيعاب النسبي إلى مرحلة الفهم الدقيق؛ بوصفه مجهودا فكريا يقف القارئ فيه بأدواته القرائية وآلياتها المنهجية على جملة النصوص المفتوحة على تنوعها واختلافها لاستخلاص دلالاتها.

ومن هذا المنطلق فإن أبسط تعريف يمكن أن يمنح القراءة النقدية هو تلك المقدرة الذهنية المتفتحة، والتي يتسربل بها القارئ لمقاربة النصوص/ الخطابات، وتحليلها، ومناقشتها، وتفسيرها، وتأويلها بما أتيح له من أدوات اكتسبها من خبراته ابتغاء تقويمها، أو تفكيكها وتقويضها، ثم إعادة بناء معانيها بسد ثغراتها وإبداء رأي وتقديم حلول للمشكلات.. كل هذا من أجل تثمينها بموضوعية تقوم على العقل والمنطق، ثم تفعيلها والعمل بها؛ ما يعني الغوص في البنية العميقة للنصوص/ للخطابات لاستخراج الدلالات المكنونة فيها لإعادة صناعتها. ومن ثمة فإن للقراءة النقدية أهدافا كثيرة من أهمها:

✓ تكوين قارئ حاذق ذي مقدرة على التعاطي الواعي مع النص/ الخطاب، وعرض رؤاه النقدية، واتخاذ مواقف، وصناعة قراراته وممارستها مثلما يصنع نصه/ خطابه.

✓ تدريبه على التفكير بطريقة منطقية وبشكل تحليلي سليم للوصول إلى استنتاجات معقولة.

✓ تعليمه وجوب تخطي المعاني الظاهرية إلى المعاني الباطنية وما فيها من رموز ودلالات..

✓ مساعدته على أن يكون قارئاً يقظاً وموضوعياً.

✓ إقناعه بأنه عضو مشارك في إنتاج النص/ الخطاب وإعادة بناء معانيه وتفسيرها

وتأويلها.

✓ تنمية روح الإبداع لديه.

✓ تمكينه من ربط المقدمات بالنتائج.

الدرس النقدي بين الولاء والجفاء

لطالما تساءلت وأنا أطلع عناوين بعض الكتب والأطاريح والمقالات.. أيهما أصوب: العبارة التي تقول (من التأويل إلى النقد) أم العبارة التي تقول (بالتأويل إلى النقد)؟ سؤال كهذا يحتاج إلى قراءة معمقة ومسألة، تؤكد أهمية الطرح لدخول عالمي النقد والتأويل، وهو ما يستدعي تساؤلا أكثر أهمية

هو: أيهما يخدم الآخر؟ وهو سؤال جدير بالإلقاء والبسط بالنسبة إلى من يشتغل في النقد والتأويل، ويبحث عن جدواهما في الخطاب عامة وفي الخطاب النقدي خاصة؟

من الدوافع الكثيرة التي أدت إلى عدم نجاعة كثير من الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، وتفعيلها على أرض الواقع تلك المقاطعات - لا التقاطعات - التي مزقت وأواصر البحث الناتجة عن ذلك الركام من المناهج السياقية "المنهج النفسي والمنهج الاجتماعي والمنهج التاريخي" والنسقية خاصة التي تبناها العرب عن الغرب، وتهافتوا عليها من دون أن يتمثلوها كما ينبغي، أو يعطوها حقها من البحث والدرس، ومن دون النظر إلى مدى استجابة أدواتها وآلياتها لشروط قابلية النص/ الخطاب الاستعانة بها، فصار الواحد منهم يتلقفها ويضمّمها أعماله من دون وعي حقيقي بأهميتها، وربما غير آبه بجدواها عند المبدع وفي نصه قبل إدراك أهميتها في الدرس النقدي، ومردّ هذا كله قد يعود لشعورهم بالدونية، أو التجاهل، أو النقص.. أو ربما رغبة منهم في تخطي مرحلة التوقع الفكري والانغلاق على الذات إلى مرحلة المثاقفة والانفتاح على الآخر، بالاطلاع على أنماط تفكيره ووعيه الإبداعي والنقدي؛ حيث كان الانتقال من سلطة المؤلف إلى سلطة النص ليس من أجل الإنقاص من دور المؤلف، باستبعاد دوره في العمل الأدبي ليعقبه إعلان عن موته وإن كان في حقيقته إعلان حياة النص يوم ميلاد القارئ؛ لأن المؤلف ظل مسيطرا ردحا من الزمن طويلا، وإنما جاء هذا الانتقال حفاظا على هوية النص والتعامل معه على أنه بنية مغلقة مكتفية بذاتها، معزولة عن أي مرجعية خارجية؛ أي تحول وجهة النظر من الناطق بالنص إلى النص بذاته أو من ناسخ القول إلى نسيج القول¹، لترتد الوجهة نحو المؤلف، ولكن هذه المرة بوصفه متلقيا مع غيره من المتلقين مع العلم بأن الانتقال من السلطتين الأوليتين إلى سلطة المتلقي يمثل ضربا من العبثية التي في جوهرها تشل حركة النقد بالنسبة إلى النظريات والمناهج، وتحد من حركية الناقد الحضيف، وإن يسمح له بالتحرك فإنه سيتخبط خبط عشواء فلا يضيف للنص أو حتى للنقد إلا الغموض والشتات. وهذا ما يؤكد أن الرفض - هنا - لم يكن "بحد ذاته قادرا على إضعاف حضور تلك المناهج في سياقات حضارية غير سياقاتها، ولا مجرد القبول ممكنا من منح تلك المناهج صفة الحياد الذي يمكنها من الانسجام الكامل داخل أطر ثقافية غير أطرها الأصلية"². إن ما يقال في هذا العرض ليس نسفا لدراسات اجتهد فيها أصحابها وعملوا على التأسيس لها والتأصيل لها خدمة للمركزات الثلاث للعملية الإبداعية (المؤلف - النص - القارئ) التي جعلت المنظومة الكلية للإنسان محورا لها، وإنما هو تساؤل كبير قض مضجعنا يبحث في مدى وعي بعض الدارسين والباحثين تلك المفارقة الدقيقة بين الانتقال (من... إلى...) والانتقال

(ب... إلى...) كون المسألة الأولى تتسبب في إحداث قطيعة؛ إذ فيها إشارة صريحة إلى انهزام القارئ. والمسألة الثانية تحقق في الغالب الأعم وصلا، فهي لا محالة تشي بانتصار القارئ. ولنكون أكثر وضوحا نستحضر بعضا من معاني حروف الجر، وتحديدًا "حرف الجر (من)، و حرف الجر (الباء)، و حرف الجر (إلى)"، لنبين أهميتها في الدرس النقدي والأدبي واللغوي، حيث يصنف علماء النحو العربي عناصر الكلام التي تتألف منها الجملة في ثلاث فئات أو أقسام هي: الاسم، والفعل، والحرف. ويختلف هذا الأخير الذي يتميز بخاصية البناء، عن القسمين الأولين بكونه لا يحمل أي معنى في ذاته، وإنما يتحقق معناه باندماجه مع غيره في سياق لغوي معين، كون حرف الجريوظف خصيصا لإيصال معنى الفعل أو ما في معناه إلى الاسم المجرور، وذلك لقصور الفعل عن الوصول إليه مباشرة، ومن ثمة من الضرورة بمكان إدراك معانيها حتى يتمكن كل من المبدع والناقد من إيرادها في موقعها من الكلام الذي يليق بها، متجنباً مغبة الوقوع في الخطأ الفكري، أو اللبس المعنوي، أو احترازا من فقدان النص ذائقته الجمالية..

فمن معاني حرف الجر (إلى) انتهاء الغاية المكانية أو الزمانية، أو المعية، أو التبيين، أو التوكيد، أو الابتداء، وقد يكون مرادفا لحرف الجر "اللام"، أو موافقا لحرف الجر "في"، أو لظرف المكان "عند".. ومن معاني حرف الجر "الباء" الإلصاق، والتعدية، والاستعانة، والتعليل، والمصاحبة، والظرفية، والبدل، والمقابلة، والتوكيد، والاستعلاء، والتبعيض، والقسم، أو العوض، والمجازة، أو يأتي موافقا لحروف الجر "عن" و"من" و"إلى"،..

ومن معاني حرف الجر (من) ابتداء الغاية المكانية أو الزمانية، أو التبعيض، أو بيان الجنس، أو التعليل، أو البدل، أو التنصيص، أو الغاية، أو الفصل، أو توكيد العموم، أو تأتي مرادفة لحروف الجر "عن" و"في" و"على" و"الباء" مثلما ورد في قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ الشورى الآية 45. غير أن حرف الجر (من) هنا لا يحمل ذات المعنى وإنما جاء في سياق مغاير تماما، يراد به ينظرون بطرف خفي؛ أي ضعيف من الذل والخوف، فسيق حرف الجر (من) بمعنى الباء.

وقد يتساءل البعض متعجبا وما محل حرفي الجر (من) و(إلى) اللذين وردا في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإسراء الآية 1. من قول القائل مثلا في عنوان مصنفه أو مقاله: من اللسانيات إلى النقد، أو من المناهج السياقية إلى المناهج النسقية، أو من الشفهي إلى الكتابي، أو من الدين إلى الفلسفة إلى النقد... وغيرها كثير وكثير جدا.

فأما جوابه ففي منتهى البساطة لنقول لهم: إن المشتغل في حقل النقد، والأدب، والفلسفة.. وغيرها من العلوم والمعارف لا بد أن يدرك أن أي دراسة سابقة - مهما كان نوعها - هي مكملّة للدراسات اللاحقة، ولا يمكن للباحث أن يصل إلى النتائج وهو يغفل أهميتها؛ كونها تعين على التوصل إلى أفكار جديدة، وتغني عن الوقوع في ذات المزالق السابقة، وبخاصة إذا أيقنا أن البحوث العلمية جميعها بنيت على ما كان سائدا من معارف وعلوم سابقة، تعاقبت عليها أجيال قصد تطويرها، ولئن كان الأمر كذلك كان لزاما على أهل العلم من إعادة مراجعتها تبعا للمستجدات العلمية، وبما يتماشى ومتطلبات الفكر الذي يتجدد بتجدد الإنسان في واقع ما بعد صراعات الحياة وتناميها عن طريق تخصيص مساحة جديدة تكون متنفسا لقراءات جديدة، أو تصويب خطأ، أو تغطية جوانب غفلت عنها الدراسات السابقة أو أهملتها، على أساس أنه "إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمي هي إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا؛ لكي نُنظم وسائل المعرفة وفقا لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته؛ فإننا نكون أكثر تمثيلاً مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثيرية في دراستنا، وتنظيم الدور الذي تلعبه فيها... وما دامت التأثيرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها؛ فلنستخدمه في ذلك صراحة، ولكن لنقصّره على ذلك في عزم، ولنعرف - مع احتفاظنا به - كيف نميّزه، ونقدّره، ونراجع، ونحدّه؛ وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه، ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة"³. ما يعني أن الدارس إذا تمكّن من ضبط هذا المفهوم ومعرفة دقائقه جاز له أن يخوض في مسألة التأويل درسا وتحليلا ومقاربة.

إن توالد المناهج وتبنيها بشكل تراكمي، ثم محاولة إسقاط أحدها على كل أنواع الخطابات، هو نوع من العبث والهديان وضرب من القتل العمدي مع سبق الإصرار والترصد؛ لأنه غالبا ما يوّد المعنى الحقيقي لها، أو على الأقل تتجاهل شحناتها الفكرية وأبعادها الجمالية وخصوصياتها الفنية لمنح أصحاب هذا المنهج أو ذاك أنفسهم حق لعب دور القاضي والجلاد؛ لإيمانهم العميق بصوابهم دون غيرهم أو لإبراز نجاحهم في الترويج لها أو تفوقهم. وهنا يتسرب سؤال صميم في هذا السياق وهو: ما السبيل لتجنب الخطاب سوء القراءة، والفهم، والنقد.. واتقاء شر تأويل لا متناه، فيه مغالطات وتناقضات.. واستعاضته بتأويل يتقبله العقل إقناعا والقلب تأثيرا؛ أي من دون الخروج عن مقاصده؟

جدلية القراءة والتأويل:

إنه ليس من الهين أن تكون قارئاً حصيفاً، أو جامعاً، أو خبيراً، أو نموذجياً، أو مثالياً.. لهذا لم يبغض النقاد المتلقي قارئاً وسامعاً حقه من العناية والاهتمام، وبخاصة وأنه يمثل دعامة التأويل بل القلب النابض فيه، ولأنه كذلك فقد شخصت إليه أبصار النقاد، واتجهت دراساتهم صوبه لمنحه مزيداً من الرعاية، فجعلوه قارئاً مستهدفاً، وخيالياً، وضمنياً، ومرتبباً، ومورطاً، وقصدياً... همهم ضبط حدوده ومعرفة خصوصياته لتقنين دوره وإعلاء شأنه تنظيراً وممارسة، ما حمله على أن يستأسد بعد أن أعطي دوراً مهماً كان حكراً على المؤلف، وهو إعادة كتابة النص/ الخطاب من جديد. كما أنه حري بنا أن نشير إلى مرحلة ما قبل التنظير، فقد أولى فيها المبدعون والنقاد اهتماماً كبيراً به منذ القدم، رغم أن نقدهم كان ذوقياً ساذجاً، فيه من التعميم الشيء الكثير، في ظل غياب التعليل المفصل والمنهج الواضح، ولكن حسبهم أن وضعوا اللبنة الأولى بمحاولاتهم القائمة على المران والممارسة، ومحاولة تفسير الظاهرة الأدبية، والمفاضلة الملقاة على عاتق المتلقي؛ لخطورة دوره في استحسان النص وقبوله من استهجانه ولفظه؛ منهم: زهير بن أبي سلمى الذي كان ينقح قصائده حولا كاملاً، ومنهم النابغة الذي كان يحتكم إليه الشعراء، وكانت العرب تضرب له قبة حمراء من آدم في سوق عكاظ، ويأتيه الشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فيحكم بينهم، ومنهم خلف الأحمر الذي قيل له: "إذا سمعتُ أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. فقال له: إذا أخذتَ درهما فاستحسنته فقال لك الصراف: إنه رديء؛ هل ينفعك استحسانك له؟"⁴، ومنهم ابن سَلَام الجُمَحِي صاحب أول كتاب وصلنا في النقد (طبقات فحول الشعراء) الذي أدرك أن "للشعر صناعةً وثقافة يعرفها أهلُ العلم كسائر أصناف العلم والصناعات"⁵ ومنهم يونس بن حبيب، وابن طباطبا، وقدامة بن جعفر، والجرجاني والآمدي.. وغيرهم ممن لهم فضل كبير على من جاؤوا بعدهم ليقاربوا النصوص/ الخطابات في جوهرها تحليلًا وتعليلاً، باستقصاء علمي دقيق وإنعام نظر.

وقد كان لنظرية التلقي دوراً ريادياً في مجال التأويل ضمن النقد الأدبي، حيث عملت على تأسيس جمالية صار فيها المتلقي قادراً على إنتاج النص/ الخطاب بواسطة فعل قراءة المعنى وتَمَثُّله عن طريق الفهم والإدراك والتفسير والتأويل، من منطلق أن القراء أحرار في تلقي نصيهم من لذة النص⁶، وبالتالي كل ما له صلة بالقراءة والتأويل، وبهذا يتحول النص/ الخطاب إلى بنية خاضعة للذات التي تؤوله. في إشارة إلى علاقة القارئ بالمقروء التي هي علاقة رغبة واشتاء متبادلة تقوم فيها العملية التأويلية ببناء إستراتيجية دقيقة لحفر الخطاب بحثاً عن المعاني الكامنة في أغوار النص والعمل على استفزازها بفعل القراءات الواعية التي "تتطلب مهارة تخيلية تطابق أو تتجاوز مهارة

المؤلف نفسه، فمواجهة البنى الرمزية في تعددها ولا نهائيتها يحتاج إلى رؤيا تأويلية تكرر جملة من العوامل والمعايير، وتتوسط القراءة والعلم والتفسير والفهم الذوقي والعقلي وغيرهما من أساليب التحليل سواء عن طريق المكاشفة والظن أو عن طريق عقلنة المعنى نسبياً، أو سواها من الأساليب المحاور، وتشابك الفضاءات وتداخل العوالم"⁷، ولن يتحقق هذا إلا بوجود قارئ مؤول نوعي قادر على السير في واحد من هذه الطرق، التي تعينه على إعادة بناء الخطاب وهو متسلح بمجموعة من الآليات والتقنيات التحليلية. لكن الطريق التي يختارها لا بد أن تكون لها مداخل ومخارج وفروع مثلها مثل الخطاب/ النص المنفتح على التأويلات؛ ما يعني أن المؤلف "يقدم للمؤول أثراً يحتاج إلى أن يكمله وهو يجهل الطريقة المحددة التي سيحققها ذلك، لكنه يعرف أن عمله سيبقى هو عمله"⁸، ولكن هل هذا يعني أن القارئ المؤول سيكون رهينة عند المؤلف خاضعاً له فيقول ما ينشده المؤلف أم تراه ينسل من خيوط نسيجه ويبني عالماً تأويلياً يخصه وفق استراتيجيات قرائية تنظم عملية الفهم والقراءة والتأويل لديه وتفشي عن أسرار مقصديات كثيرة ؟

إن محاولة الكشف عن جماليات خطاب ما تعني تفاعل القارئ المؤول ضمن بنياته اللغوية، والتركيبية، والفنية، والأسلوبية، والدلالية.. من أجل ممارسة عملية التأويل انطلاقاً من عملية القراءة التي هي عبارة عن فعل واع يقوم به القارئ بغية سبر عوالم النص/ الخطاب وعبور دهاليزه تحقيقاً لقراءات تأويلية عساها تسد فراغات تركها مؤلف الخطاب/ النص عمداً. ما يفسر أن العلاقة هنا "تكاملية ما بين التأويل بوصفه عنصراً تفسيرياً بما هو موجود داخل النص من مفاهيم ومضامين ودلالات، والقراءة باعتبارها وسيلة تواصلية تتم بين القارئ والنص لغرض بناء علاقة معرفية، الهدف منها استيعاب مكان النص الظاهرية والباطنية التي لا تكتمل إلا بوجود عنصر التأويل الذي يقوم بكشف الغموض الذي يكتنف مضامين النص"⁹. وما دام الخطاب/ النص قابلاً لعمليات القراءة والفهم والتأويل فلا بد له من سياق بكل مستوياته الدلالية والتداولية وقدرته الإجرائية للبحث عن مقاصد المؤلف، لذلك يعرف التأويل أثناء أداء مهامه منعطفات خطيرة ذات صلة بحمولته الثقافية، والتاريخية، والمعرفية والتي تقوده إلى تأويلات من نوع مخصوص تكشف عن جملة من الرؤى والتوجهات بالنظر إلى انفتاح الخطاب/ النص وتعدد قراءاته.

الخطاب النقدي على صراط التأويل:

يسعى الخطاب النقدي لتأسيس البنى التحتية لآلية التأويل لمجموع الخطابات/ النصوص بالنظر إلى أن "النصوص أبنية لغوية، لا تفارق النظام الدلالي للغتها إلا في حدود خاصة مشروعة

بطبيعة وظيفتها المقصودة في الثقافة"¹⁰، لذلك تكثر التأويلات وتختلف بكثرة القراءات واختلافها، غير أنه لم تجعل القراءة يوما من أجل القراءة، أو التأويل من أجل التأويل، أو النقد من أجل النقد.. كلا ولا خاب امرؤ يوما ومقصده نبيل - على حد قول إبراهيم طوقان - بل لم تكن القراءة والنقد والتأويل إلا من أجل أهداف أسمى أفلها إعادة تشكيل وبناء الخطاب وتأويله وتفعيله باستنطاق المسكوت عنه عند المؤلف ورؤيته المخبأة، وهنا حق لنا أن نتساءل ما موقع التأويل من الخطاب النقدي؟

تنطلق هذه الإشكالية من بسط سريع لمفهوم النقد والتأويل، وأهميتهما في تعزيز دور النص/الخطاب مهما كان شكله وموضوعه وحجمه، المهم أنه يحرك صنوفا من الانفعال الشخصي والتعصب والانحياز، ويجلي وجوها من المعاني للوصول إلى المغزى بإعمال العقل خاصة، ولأنه كذلك فإنه في ذات الوقت يوجب ضروبا من القراءات السريعة والمتجددة وربما العنيفة والتعسفية في كثير من الحالات؛ لأنها تحاول إزاحة ما قبلها من قراءات حتى تتمكن من بسط سلطانها، اللهم بعض القراءات المتأنية والمسالمة والهادئة، والتي يبتغي القراء من ورائها توصيف وضع وتقريبه بتوظيف أدوات تقنية وآليات إجرائية تسم النصوص والخطابات قبل أن تميز أصحابها وتجعلهم متفردين.

ولئن كانت بعض الأسئلة تتسرب بين الفينة والأخرى من مسألة ما فإن مسائل أخرى شائكة تفور منها تساؤلات من قبيل: هل للتأويل منهج خاص به وحده بالنظر إلى توالد معانيه وتناميها؟ وهل التأويل يخضع الخطاب أم يخضع له؟ وهل معايير تأويل الخطابات على تنوعها واختلافها هي نفسها؟ بمعنى هل تأويل الخطاب الديني هو نفسه تأويل الخطاب النقدي والأدبي والمعرفي والإنشائي والنفساني والاجتماعي... وغيرها وهل النقد والتأويل يسعيان إلى تفكيك الخطابات وتعريضها خصوصياتها أم من خصوصياتها؟

إنّ الخطاب "حدث تواصلي معين، ولكنه يمثل تفاعلا لفظيا أو توظيفا لغويا مكتوبا أو منطوقا بصفة خاصة"¹¹، ولأن الخطابات تزداد حضورا وكثافة وتعمل على بسط نفوذها في الساحة الفكرية والنقدية والفلسفية والتاريخية.. في ظل تأزم الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والدينية، والسياسية، وحتى الحربية.. فإنها لا تخلو من أساليب الاستقطاب المدروسة، أو بعبارة أدق لا تخلو من تفعيل لإستراتيجية الهيمنة على وعي متلقيها ومداركه، فإذا كان التحليل النقدي للخطاب يعنى بمعالجة الأساليب؛ أي الطرق التي ينهض بها النص والكلام بتقنين وإنتاج ومقاومة اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها ولا مساواتها¹². فهذا يعني إعانة المجتمعات على مقاومة كل ما من شأنه أن يثبط عزيمتهم في استيعاب فكرة "ما بعد الاعتداءات واللامساواة"، وهنا يكمن الأثر الطيب للتحليل النقدي

للخطاب في توعية البشر بالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والبنى الاجتماعية بمختلف تقنياتها التي تصنع النصوص/ الخطابات، والتي هي في جوهرها "شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب"¹³، و"يعد خطابا كل ملفوظ/ مكتوب يشكل وحدة تواصلية تامة"¹⁴، ومنه يمكن القول: إن الأدب من حيث هو نص إبداعي له مضمونه، والنقد من حيث هو كلام عنه ومنه/ أو فيه بالرجوع إلى صيغه وخصوصياته له وظائفه التي أكثر ما تتجلى في الكشف، والتشخيص، والتحليل، والمناقشة، والوصف، والحكم، والمعالجة... ولذلك عدّ النقد "فن تقويم الأعمال الفنية والأدبية، وتحليلها تحليلًا قائمًا على أساس علمي"؛ من أجل تمييز جيد الكلام من رديئه، وصحيحه من فاسده، وهو ما ساعده على ابتكار خطابه المستحدث...¹⁵؛ لأن المنهج الذي هو جزء لا يتجزأ عن النقد هو من يعرض نفسه على الخطاب فينتقي هذا الأخير ما يراه مناسبًا، وليس العكس.. إذ حسب الخطاب أنه سابق للمنهج.

إن التأويل بعيدا عن كونه فنا أو نظرية، أو فلسفة أو علما أو إجراء أو آلية.. هو شعور القارئ المؤول بحاجة الخطاب إلى مراجعات قرائية تنبئ عن اتساع مدارك عقله ونمو قوة التفكير لديه، للوقوف على انفتاحات النصوص/ الخطابات على كل قراءة جديدة، ولتأكيد مدى تقبله مستجدات ذات مضامين لامتنتية من دون إكراه، وهي الفكرة التي لخصها بعض الدارسين عندما حددوا التأويلية / الهرمينوطيقا بوصفها فنا تأويليا في ثلاث كلمات: "التعبير، والشرح، والترجمة"¹⁶، وقال بعضهم هي "فن تفسير وتأويل العلامات... تحاول حل كل العوالم الرمزية، وبخاصة العوالم الخرافية والأسطورية، والرموز الدينية والأشكال والصيغ الفنية. إن التأويلية بمعناها الدقيق هي المنهج المعتمد في تأويل النص الأدبي، الذي ينبع من ذات القارئ"¹⁷؛ ابتغاء فهمه والكشف عن بنيته الداخلية والوصفية، وطبيعته ووظيفته المعرفية خاصة، وكذا رغبة في محاولة الوصول إلى ما يضمه النص/ الخطاب من حقائق ورموز ربما لأسباب إيديولوجية أو سياسية أو حتى زمنية تعود لبعده عنا أو بالأحرى لبعدها عنه...

ولئن كانت التأويلية هي "نظرية عمليات الفهم في علاقاتها مع تفسير النصوص، وكانت الفكرة الموجهة هي فكرة انجاز الخطاب كنص"¹⁸. فإن التأويل لا يخرج عن كونه مقاربة معرفية لفهم الذات والآخر، ووصلهما ببعض، وإن لم ير فيه بعضهم منفذا لبنية روح الإنسان، ولكن لواقع مبني من قبل سيرورة التأويلات اللامتنتية¹⁹، فإذا كان "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلُّك اللفظ على

معناه الذي يَفْتَضِيهِ موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض... ولكن يدلُّ اللفظ على معناه الذي يُوجِبُهُ ظاهره، ثم يَعْقِلُ السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانيا هو غرضك،...فها هنا عبارة مختصرة وهي: أن تقول المعنى ومعنى المعنى. تعنى بـ "المعنى" المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة. وبـ "معنى المعنى" أن تَعْقِلَ من اللفظ معنى ثم يُفَضِي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر²⁰. فإن هذا ما يفضي إلى القول: إن التأويل عمل على تخطي مرحلة الاكتفاء بوضع الأسس العامة لفهم النص/ الخطاب، وعلى تجاوز "مسافة زمنية أو لغوية ما من المعنى"²¹ إلى مرحلة إثبات وجود الوعي/ الفهم من دون أن يُبخس موضوع النص/ الخطاب - أي لغته - حقه من دوره في تزويد المؤول بالمعنى، على أساس أن القارئ المؤول يفهم "المؤلف بقدر توظيفه للغة، فهو- من جانب- يقدم استعماله للغة أشياء جديدة، ويحتفظ- من جانب آخر- ببعض خصائص اللغة التي يكررها وينقلها"²² وهنا سيزداد إسهامه في إعادة صناعة النص/ الخطاب، وتشكيله باستنطاقه، وفك شفراته، وسبر أغواره، وإضاءة دهاليزه؛ لإدراك معانيه ودلالاته التي تنبثق منه، بناء على إمكاناته وما توفر لديه من أدوات قرائية فاعلة وآليات تأويلية منطلقها الفهم أولا بنوعيه الجوهرى والقصدى وبمرجعياته وأنساقه، فالتفسير ثانيا بدلالاته ومعانيه ما يجعل التأويل أخيرا يتحرك في نطاق مرجعيات النص/ الخطاب فيرتحل بالمعنى إلى تلك الواقعة النصية التي هي المحرض على القول النقدي من تأريخ، ووصف، وكشف، وتفسير، وتأويل²³، يقوم على القراءة التفاعلية.

إن وجود نص/ خطاب من دون قارئ مؤول يمحو عنه جدواه، بل يمحو وجود النص/ الخطاب في حد ذاته، مثلما تحاول بعض النظريات والمناهج الحديثة إلغاء ما سبقها من نظريات ومدارس ومناهج نظروا إليها بدونية من برج عاجي مَوْقَعَتْ نفسها فيه، غير أن بعض النظريات أعادت الأمور لنصابها، فاستدعت القارئ والنص/ الخطاب على حد سواء، وأنزلتهما منزلة سامقة في الدرس النقدي للخطاب الديني، أو الأدبي، أو الإعلامي، أو السياسي، أو الاجتماعي، أو الثقافي، أو الفلسفي، أو الإعلامي، أو الإشهاري.. ليكون حضور التأويل فاعلا بين القارئ والنص/ الخطاب، ولم تلغ حضور المبدع الباحث، لما له من أهمية في تحقيق التواصل؛ ما يعني "محاولة إقامة بنية للتلقي أو جهاز للقراءة في مقابل بنية الرسالة أو جهازها الإبداعي والفني الراجع إلى نظامها الذاتي؛ أي أننا بصدد مستويين اثنين للتفاعل هما:

أ. تفاعل المتلقي بالباحث: تواصل

ب . تفاعل المتلقي بالنص: تأويل²⁴. وكل هذا ينصهر في بوثة خطاب ذي أسرار قابلة للتلقي، ومن ثمة للكشف عنها من خلال كم من التأويلات المتنوعة التي تحتاج إلى ضابط يحد من جموحها. وبعد؛ فماذا قدّم هذا النقد المعاصر بمناهجه وبمرجعياته وأنساقها، وماذا منحت التأويلات المتجددة بتنقيحاتها وشروحاتها وما أتبعها من التفسيرات، للخطاب عموماً، وللخطاب الأدبي والنقدي خصوصاً؟ وهل تستقر إلى حيث استقرت ألوان من العلوم والثقافات في عالم الإبداع والفن أم تتجاوزه كما تجاوزت المراحل التقليدية بحكم التطور القائم على التأثير والتأثير؟ ثم ما دور التأويل في صناعة القراءة والنقد؟ وهل هو كفيل برسم معالم القارئ والناقد والمؤول على حد سواء؟ وكيف أسهم القراء والنقاد والمؤولون في بلورة الخطاب وتطويره وتوجيه دفته نحو صناعة الأفكار والمناهج والنظريات وتفعيلها؟ وهل شنت المناهج النقدية وبخاصة التأويل حرباً على الخطاب الإبداعي والنقدي أم هي مجرد فورة عابرة وثورات تتأجج لبعض الوقت ولكنها سرعان ما تخدم أم أن وجودها أمر حتي يبقى على صنوف كثيرة من الخطابات التي تضمن التوازن العقلي والفكري والنفسي والاجتماعي.. الذي تصنعه القراءات والتأويلات؟ وهل كثرة التأويلات وتجاوزها الحد يؤدي إلى صدماتٍ تأويلية تعزز التأويل وتثريه أم صدماتٍ تزيد من حدة الصراع بين المؤولين؟ ثم ما المقصود بالنقد والتأويل وما أهميتهما وما حقيقتيهما؟ ومن يصنعهما؟ وما الذي حمل كل من القارئ والناقد والمؤول على تحمل عبء صناعة القراءة والنقد والتأويل والقيام بهذه المهمة الخطيرة؟ وما هي المعايير التي تجمع و/ أو تفرق بينهم؟ وهل تُشكل التأويلات مفترق الطرق بينها وبين الخطاب النقدي أم تمثل نقطة تقاطع؟ وهل القارئ الناقد هو نفسه القارئ المؤول؟

يتعاطى المتلقي - قارئاً ومؤولاً - مع النص/ الخطاب بناء على نوعه، حيث إنه إذا تمكّن من التعرف على نوع الخطاب تمكّن بالضرورة من معرفة الدور المنوط به، الذي سيغدو حقاً مشروعاً، في ظل الإبقاء على المعايير التي يبني عليها قراءته أو/ وتأويله؛ فهو إما أن يركز على ما قاله النص فيشتغل في النقد، وإما أن يعنى بالخطاب النقدي فيشتغل في نقد النقد، وإما أن يهتم بما لم يقله هذا الخطاب النقدي أو ذاك فيشتغل في تأويل الخطاب النقدي، وبين هذا وذاك تظهر على السطح جملة من المعايير الموضوعية مثل: التلقي والمتلقي، والقراءة والفهم، والتحليل والتعليل.. وهي معايير كما هو واضح ذات صلة بنظرية التلقي خاصة، لضبط إشكالية تأويل الخطاب النقدي الذي هو بدوره يشتغل على نص/ خطاب يلعب فيه المتلقي دوراً مهماً "في فهمه، وتحيينه، وتأويله، وكذا الطريقة التي يحددها النص نفسه للتعامل معه"²⁵.

مما لا شك فيه أن ضمور القراءة جاء نتيجة تجني بعض المناهج على النصوص التي زعمت تمكّن أدواتها من دراستها، غير أنها في جوهرها أكّدت إفلاسها وعدم نجاعتها في الغالب الأعم، ولكن بالموازاة ظهرت دراسات أخرى ألقت بظلالها على القارئ الوفي، الذي يشترط فيه أن يكون مثاليا ليكون قادرا على تأويل خطاب نقدي ذي معان متعددة لا نهائية، وهو ما يتيح للقارئ التواجد في مساحة لا بأس بها من الحرية، من دون إغفال لما أراده المؤلف المنتج من خطابه، وهذا يعني إلباس الخطاب الإبداعي خطابا نقديا، وإلباس الخطاب النقدي خطابا تأويليا.. على أن لا يمحو أي خطاب خصوصية خطاب آخر، ومن ثمة بد من تحديد ملامح الناقد والمؤول الحاذقين الدقيقين اللذان تقع على عاتقهما مسؤولية إرضاء ما ينتظره الجمهور المستهدف منهما، وبوصف الناقد وسيطا أولا يقلص المسافة ويقربها بين المبدع والقراء، وبوصف المؤول وسيطا ثانيا يضع نفسه في منتصف المسافة بين خطابين اثنين هما: الخطاب الإبداعي والخطاب النقدي، ويحمل نفسه عناء قراءات مكثفة ومغايرة؛ لذلك ينبغي لهما أن يحتاطا لنفسيهما، فيحفظانها بما يليق بها، وأن يكونا صنو المؤلف، على دراية بالموضوع محل النقد والتأويل وعلى معرفة جيدة به، ملمين بجملة العلوم والمعارف حتى لا يخوضا غمار نقد و/ أو تأويل لا يضع النص/ الخطاب بكلماته ومصطلحاته ومعانيه محل عناية فائقة تقوم على مراعاة أهداف أي خطاب، وهما بهذا إن جانباً هذه الضوابط حاداً عن الصواب، فيخرجوا بالخطاب عن مقاصده الأساسية التي قد تتسبب في أزمات كشف، وفهم، وإفهام، وتجديد، وضبط... وعليه فالممارسة النقدية والتأويلية في مجملها تحتل مكانة أكبر بكثير من تلك التي تحتلها الخطابات الأدبية، لأن أدوار القراء والنقاد والمؤولون لا تنتهي فهم يقرؤون، ويتذوقون، ويستمتعون، ويشرحون، ويبسطون، ويضعون المفاهيم، ويسدون الثغرات، ويصوبون، ويزنون، ويؤولون، ويتتبعون دقائق الخطابات الأدبية والدينية والفلسفية... لأن المبدعين والكتاب ينامون ويتركون أمر تثمينها للقراء ألم يقل المتنبي يوماً:

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا *** وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَاهَا وَيَخْتَصِمُ

وهذا ما يوسّع من دائرة القراءة والنقد والتأويل مفهوماً وأصولاً، ينبغي على كل من القارئ والناقد والمؤول السير على ضوابطها وحدودها.

لا يكتفي المتلقي - قارئاً ومؤولاً وناقداً- بالبحث عن مقصدية منتج الخطاب الأدبي والنقدي، وإنّما يترصد أيضاً فلتاته، وإن كان هذا المتلقي - نفسه - بضروبه وفروعه، يقف على الخطاب الإبداعي عاجزاً عن الإمساك بمعناه الحقيقي بقبضة من حديد، وهي قبضة تصادر جماهيرية القراءة التي تعني

التعدد في المعنى والتنوع، كما تصادر غرض الخطاب ومنتجه وهويتهما. وبالعودة إلى الفلتات التي يقع فيها الخطاب رهينة لدى الناقد والمؤول فإنهما يغتزمان الفرصة - ربما - لتفكيك الخطاب وإعادة تركيبه معنًى، بما أوتي كل واحد منهما من معاول لحفر الخطاب أثناء دخولهما قلب عمليتي النقد والتأويل، من دون إحداث حفرة كبيرة يصعب تغطيتها أو حفرة عميقة تكون سببا في هدم البنية التحتية للخطاب فيستحيل ترميمها.

وعلى هذا الأساس يتحرك المتلقي داخل الخطابات بكثير من الحرية المضبوطة، ويتقمص أدوارا متراوحة بين القارئ، والناقد، والمؤول، والشارح، والمحلل، والمقيّم، والدارس، والوسيط، والحكم، والموجه الذي يعيد تشكيل فكرة ما، والناقد المؤول - هنا - تحديدا مجاهد في ساحة معركة الخطاب، لذا يجب عليه أن يتسلح بأسلحة يتوسّل بها أهدافه المسطرة قبلا بمهارة منقطعة النظير، في ظل استحضار معارفه ومهاراته وخبراته عن طريق الاستقصاء والتفكير المنطقي، وفي ظل إلزامية وجود استراتيجيات التواصل، وإن كان التأويل لا يقل قيمة عن النقد من حيث وظيفته التي لا تخرج عن كونه إعادة بناء وتصور للمعنى وإنتاج للفهم وبحث في خصوصيات لا تتحقق إلا بالقراءة والدربة وطول التأمل والظن والمكاشفة... وكلها نتائج قراءات يتشارك فيها المتلقون وخاصة الناقد المؤول، ومن ثم فإن دور المؤول لا ينحصر في مطابقة مقاصد المؤلف وإنما يكمن في البحث عما يجعل من نص ما نصا أدبيا، أي تلمس الخصوصية الأسلوبية والفنية التي تمنح عملا أدبيا صفة الأدبية. ولأن مثل هذه الخصوصية لا تتحقق إلا باقتفاء أثر النص/ الخطاب بأجهزة إجرائية منهجية دقيقة، نظرا للحقل الذي تنتهي إليه حيث لا مجال للدقة العلمية بقدر ما هو مجال للدقة المنهجية. وقد تتحقق النظرية التأويلية في تحليل النصوص الأدبية والخطابات النقدية وفقا لاتجاهات نقدية مختلفة منها ما يتصل بجمالية تلقي النصوص، ومنها ما يتعلق بانفتاح النصوص، وتعددية الدلالة ولا نهائية التأويل، وهو ما يستدعي تجديد الرؤية النقدية وإعادة تشكيلها بناء على "أن عالمية التأويل هي في الواقع، عالمية البعد الفلسفي وليس مجرد القاعدة أو الدعامة النظرية لعلوم الإنسان، يتعلق الأمر بتمديد آفاق التأويل كمنعطف حاسم في التراث الإنساني. عالمية التجربة التأويلية تعني أيضا تشكل التجربة الإنسانية في عالم أو فضاء التأويل، أي التأويل بوصفه الحقل أو الفضاء أو البعد الفني والتاريخي واللغوي"²⁶.

وإيماننا منا أن النص/ الخطاب ممارسة ذات معنى وليس فعلا مجانيا²⁷، فهو قابل للتأويل المستمر، وبضبط أكثر دقة خاضع لتأويلات متناسلة لا نهاية لها تفضي إلى ما لا نهاية من المعاني، وهو

ما يجعلنا نقر بأنه لا توجد - دوما - قراءة نزيهة أو تأويل بريء وإنما تحضر في بعض الأوقات قراءة عنيفة أو تأويل حاد، وإن حاول بعضهم جعلها قراءة مطواعة وتأويلا مدعنا أو مشاكسا، فما يعيد الناقد المؤول تشكيكه ليس سوى استرجاع لنص/ خطاب يحتاج إلى أنفاس جديدة تبعث فيه الحياة.

ولكن ما موقع القرآن الكريم كلام الله المعجز من كل هذا؟ لا شك أن مقاصد القرآن كثيرة منها إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل والوثنية إلى العلم والمعرفة وعبادة الله وحده، وهو ما لا تعكسه أكيد بعض الدراسات التي تسعى إلى إخراج الناس من النور إلى الظلمات، ومن العلم إلى الجهل، ومن عبادة الله وحده والتعبد بتلاوته وهو الذي نزل منجما ومفرقا حسب الأحداث والوقائع، ليوكب القضايا والمستجدات وقد جاء مصححا للعقيدة والتوحيد مصححا للنفوس وتزكيتها وموجها إلى حسن عبادة الله وهداية لهم إلى الصراط المستقيم تحقيقا للسعادة الدنيوية والأخروية، وتكريما للإنسان وتشريفه.

لقد شرع المهتمون بتفسير النصوص المقدسة باعتماد فن التأويل لاهوتيا ثم امتد مع تعدد القراءات النقدية وارتبط بنظرية المعرفة العلمية أو ما يعرف بالابستمولوجيا ليتغلغل فيما بعد في كنه الفلسفة ويرتبط كعلم الوجود برؤيا الوجود وتفسير الكون وكل ما من شأنه أن يعنى بالميتافيزيقا. بالموازاة نظر المفسرون إلى التفسير كمعادل إجرائي للتأويل، وقد كان الخطاب متأرجحا بين قراءة تفسيرية منطلقها ومنتهها اليقين وبين قراءة تأويلية منطلقها ومنتهها الظن، ثم إن ما يصدق على الخطاب البشري ليس يصدق على القرآن الكريم والشأن نفسه بالنسبة إلى الدراسات التي تعنى بالنص البشري ليست مناهجها وأدواتها وآلياته بمنأى من الفساد مثل منهج التأويل النفسي، الذي يعنى بالمؤلف، والأسباب التي قادتته للتعبير والكتابة، ضمن سياق نفسي، وآخر تاريخي ينتهي إليه المؤلف وهذا ما لا أصل له في شريعتنا السمحة²⁸. وإن كان بعض الدارسين اهتموا بتفرد الخطاب عن غيره فإنهم نظروا إليه موصولا على الأقل بالتأويل النحوي الذي يعتمد على سمات الخطاب التي تشيع في ثقافة ما، أو التأويل التقني الذي يهتم بفردانية رسالة الكاتب، بل عبقريته... ويسمى هذا التأويل إيجابيا لأنه يصل إلى فعل الفكر الذي أنتج الخطاب²⁹. لقد قادت هذه التعريفات والتصنيفات للتأويل إلى رسم خارطة عبور داخل أنفاق النصوص / الخطابات ودهاليزها لتقصي فاعليته فيها وبخاصة وأنها تعرف تحولات وانزياحات كثيرة تفرض على القراء امتلاكاً للآليات والأدوات الإجرائية ليتمكنوا من تحقيق الرؤية التأويلية، المستندة على المهارة التخيلية والمقدرة التأملية والتفكير النقدي والمرجعيات

المعرفية، والمنابع الفكرية والخبرة الجمالية.. ما يعني تحميل القراء طاقات تذوق واستيعاب وفهم وإدراك وتفسير وتأويل تتخطى ما أوتي المؤلف نفسه الذي يمارس عليه مراقبة من نوع مخصوص، وإن كانت عملية التأويل هنا تبدو مرهقة نوعاً ما وفيها من الخطورة ما فيها فمردها إلى انفتاح التأويل وتلاقحه مع حقول معرفية متنوعة، لكن في المقابل فإن هذا لا يمحو عن التأويل بوصفه علماً مرونة منهجه منظوراً إليه كوعي وفهم وتمثل للمعاني وكآليات تكشف عن قدراته ومقاصده.

الخاتمة:

وبعد، فإن التجربة النقدية والتأويلية اتخذت منعطفاً عنيفاً أحدث شرخاً كبيراً على مستوى الخطاب حيث طوّحت به بعيداً عن أهدافه الكبرى ومرماه الواضح كونها على المستوى العربي لم تتجاوز حدود مشروع غير أصيل استنزفه الغرب وعندما تأكدوا من فساده ألقوه على قارعة الطريق خصوصاً عندما نظر التيار التأويلي الغربي إلى الكتب المقدسة على أنها نصوص بشرية متساوية المعايير قابلة للإخضاع النقدي ولتطوير الخطابات النقدية الأدبية والمعرفية والإنشائية والنفسانية والاجتماعية والفلسفية والتاريخية... وغيرها تأويلاً لزام علينا تحريرها من قيود التبعية ومن كل ما يشل حركتها وتنميتها وتطورها كون التأويل في الخطاب النقدي المعاصر يمثل وعياً ورؤية ووجهة نظر ومواصفة.. وبخاصة إن جزمنا أن كل منهج وكل نظرية فوضوية هي اليوم مشروع قراءة ثانية بل قراءات مكثفة ومتحررة.

نحن لسنا من دعاة الانغلاق على الذات ولا نرفض استجلاب كل ما هو غربي والانفتاح على الآخر ولكن سؤالنا بريء براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام هل حقاً غيّر النقد بمنهجه والتأويل بشروحاته وتفسيراته مسار الخطاب بأي شكل من الأشكال ليتغير واقع الإنسان الذي تاه بين هذا وذاك بدل أن يستجمع من خلالها شتاته ويعيد بناء ذاته أو يعمل على تجديدها أو إصلاحها أو تطويرها خمس وسبعون عاماً من الاحتلال والعدوان والقتل والفتك والظلم لم يتمكن فيها الإبداع والنقد والتأويل من تغيير الوضع في فلسطين قيد أنملة بل زاد الوضع سوءاً وهو حال النظريات والمناهج الغربية التي أعلنت خواء هذه الدراسات وإفلاسها وأكدت فقدان شرعية وجودها فما بالنا بشرعية تفعيلها على خطابات وأي خطابات؟! لذلك صدق من قال "بؤس النظرية".

تم بحمد الله

مراجع البحث:

— ابن سلام الجمعي: طبقات فحول الشعراء، تحق/ محمود محمد شاكر، دار صادر — بيروت — لبنان 1974

- أحمد المتوكل: الوظيفية بين الكلية والنمطية - دار الأمان، الرباط، ط1، 2003
- إدريس بلمليح: القراءة التفاعلية - دراسات لنصوص شعرية حديثة - دار توبقال - المغرب، ط1، 2000
- أمبرطو إيكو: الأثر المفتوح، تر/ عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار، ط3، 2013
- بسمة عبد العزيز: سطوة النص - خطاب الأزهر وأزمة الحكم -، دار صفصافة - الجيزة - مصر، ط1، 2016
- بول ريكور: من النص إلى الفعل - أبحاث التأويل - تر/ محمد براءة، حسان بورقية، الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة - مصر، ط1، 2001
- بول ريكور: مهمة الهرمينوطيقا، تر/ خالدة حامد، مجلة نوافذ، النادي الأدبي - جدة - ع 22، ديسمبر 2002
- تامين (جويل غارديس) و هوبير (ماري كلود): معجم النقد الأدبي، تر/ كامل عويد العامري، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد - العراق، ط1، 2013
- ج. لانسون وأ. ماييه: منهج البحث في الأدب واللغة، تر/ محمد مندور، دار العلم للملايين بيروت - لبنان، 1946
- الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحق/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة - مصر، مكتبة المدني - جدة - السعودية، ط1، 1992
- حسن بن حسن: النظرية التأويلية عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط02، 2003
- خيرة حمر العين: الشعرية وانفتاح النصوص - تعددية الدلالة ولا نهائية التأويل - مجلة الجسرة الثقافية، الدوحة - قطر - ع 22، 2010،
- رومان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، تر/ جابر عصفور، دارقباء - القاهرة - مصر، 1998
- سنوسي شريط، القراءة والتأويل - مصطلحات التلقي والمشاهدة - مجلة كتابات معاصرة، ع 63
- عادل مصطفى: مدخل إلى الهرمينوطيقا، دار النهضة العربية، مصر، ط1، 2003
- عبد السلام المسدي: النقد والحداثة - مع دليل بليوغرافي - دار الطليعة - بيروت - لبنان، ط1، 1983.
- عبد السلام المسدي، اللسانيات، وإبستمية النقد، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ع 32، مارس 1997
- عبد الغني بارة: استعمال النصوص وحدود التأويل . في نقد الممارسة التأويلية عند إمبرتو إيكو، مجلة المخبر، بسكرة - الجزائر، ع 1، 2009
- عبد الوهاب المسيري: إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1996
- فان دايك توين: الخطاب والسلطة، تر/ غيداء العلي، المركز القومي للترجمة - القاهرة - مصر، ط1، 2014
- محمد توامي: الشعر العربي المعاصر - حضور المنهج وغياب السؤال الفلسفي - مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة 2، الجزائر، ديسمبر 2013، ع 3
- محمد مفتاح: مجهول البيان، دار توبقال - المغرب -، 1990
- نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، القاهرة، 1992

- نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب . دارسة معجمية . جدرا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط 1 2009
- هانز روبرت جونس: علم التأويل الأدبي، حدوده ومهماته، تر/ بسام بركة، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ع3، 1988
- هانس غيورغ غادامير: فلسفة التأويل، تر/ محمد شوقي زين ، منشورات الاختلاف – الجزائر - ط2، 2006
- Julia Kristiva, la revolution du langage ,poins ,Editions du seuil ,1974
- Umberto Eco: Les limites de l'interprétation, éd. Grasset, 1990

هوامش البحث:

- ¹ - ينظر عبد السلام المسدي، اللسانيات، وإبستمية النقد، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ع 32، مارس 1997، ص: 19.
- ² - عبد الوهاب المسيري: إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1996، ص 272
- ³ - ج. لانسون وأ. ماييه: منهج البحث في الأدب واللغة، تر/ محمد مندور، دار العلم للملايين بيروت – لبنان، 1946، ص 29
- ⁴ - ابن سلام الجمعي: طبقات فحول الشعراء، تحق/ محمود محمد شاكر، دار صادر – بيروت – لبنان 1974. ص 17.
- ⁵ - ابن سلام الجمعي: طبقات فحول الشعراء، ص 23
- ⁶ - ينظر رومان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، تر/ جابر عصفور، دارقباء – القاهرة - مصر، 1998، ص 122
- ⁷ - خيرة حمر العين: الشعرية وانفتاح النصوص - تعددية الدلالة ولا نهائية التأويل - مجلة الجسرة الثقافية، الدوحة - قطر - ع 22، 2010، ص ص 19 - 20
- ⁸ - أمبرطو إيكو: الأثر المفتوح، تر/ عبد الرحمان بوعلي، دارالحوار، ط3، 2013، ص 33
- ⁹ - سنوسي شريط، القراءة والتأويل - مصطلحات التلقي والمشاهدة - مجلة كتابات معاصرة، ع 63 ص 173
- ¹⁰ - نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، القاهرة، 1992، ص 101.
- ¹¹ - فان داك توين: الخطاب والسلطة، تر/ غيداء العلي، المركز القومي للترجمة – القاهرة – مصر، ط 1، 2014، ص 222
- ¹² - دون دوريتشر ميشيل: الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر، تر/ عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة – مصر – 2011، ص 7 نقلا عن بسمة عبد العزيز: سطوة النص – خطاب الأزهر وأزمة الحكم -، دار صفصافة – الجيزة – مصر، ط 1، 2016، ص 37
- ¹³ - نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب . دارسة معجمية . جدرا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط 1، 2009، ص 13.
- ¹⁴ - أحمد المتوكل: الوظيفية بين الكلية والنمطية - دار الأمان، الرباط، ط1، 2003، ص 22

- ¹⁵ - ينظر عبد السلام المسدي: النقد والحداثة - مع دليل بيبليوغرافي - دار الطليعة - بيروت- لبنان، ط1، 1983. (المصطلحات موزعة في الكتاب كله).
- ¹⁶ - هانز روبرت جونس: علم التأويل الأدبي، حدوده ومهمّاته، تر/ بسام بركة، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ع3، 1988، ص 56
- ¹⁷ - تامين (جويل غارديس) و هوبير (ماري كلود): معجم النقد الأدبي، تر/ كامل عويد العامري، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد - العراق، ط 1، 2013، ص 214
- ¹⁸ - بول ريكور: من النص إلى الفعل - أبحاث التأويل - تر/ محمد براءة، حسان بورقية، الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة - مصر، ط 1، 2001، ص 58
- ¹⁹ - نقلا عن عبد الغني بارة: استعمال النصوص وحدود التأويل . Umberto Eco: Les limites de l'interprétation, éd. Grasset, 1990
- في نقد الممارسة التأويلية عند إمبرتو إيكو، مجلة المخبر، بسكرة - الجزائر، ع 1، 2009، ص 178
- ²⁰ - الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحق/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة - مصر، مكتبة المدني - جدة - السعودية، ط 1، 1992، ص 263
- ²¹ - حسن بن حسن: النظرية التأويلية عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 02، 2003، ص 14.
- ²² - عادل مصطفى: مدخل إلى الهرمينوطيقا، دار النهضة العربية، مصر، ط 1، 2003، ص 162
- ²³ - ينظر محمد توامي: الشعر العربي المعاصر - حضور المنهج وغياب السؤال الفلسفي - مجلة اللغة العربية وأدائها، جامعة البليدة 2، الجزائر، ديسمبر 2013، ع 3، ص 187
- ²⁴ - إدريس بلمليح: القراءة التفاعلية - دراسات لنصوص شعرية حديثة - دار توبقال - المغرب، ط1، 2000، ص 98
- ²⁵ - 32 p Umberto Eco: Les limites de l'interprétation, éd. Grasset, 1990
- ²⁶ - هانس غيورغ غادامير: فلسفة التأويل، تر/ محمد شوقي زين ، منشورات الاختلاف - الجزائر - ط2، 2006، ص 26
- ²⁷ - Julia Kristiva, la revolution du langage ,poins ,Editions du seuil ,1974, p, 340
- ²⁸ - للاستزادة ينظر محمد مفتاح: مجهول البيان، دار توبقال - المغرب -، 1990، ص 90 - 91
- ²⁹ - بول ريكور: مهمة الهرمينوطيقا، تر/ خالدة حامد، مجلة نوافذ، النادي الأدبي - جدة - ع 22، ديسمبر 2002، ص 46 وما بعدها